الشيخ محمد بن علي السنوسي
(1787-1859).

أ.بلعالية ميلود*

مقدمة:

يتناول هذا المقال الشيخ السنوسي أحد زعماء الإصلاح في العالم الإسلامي لما لجهوده من أهمية تاريخية في تاريخ الحركات الإصلاحية في العالم الإسلامي لأنه نجح في تأسيس الحركة السنوسية التي بدأت الدعوة إلى التمسك بالكتاب والسنة والعمل بهما ونفض ما علق بالإسلام من أمور خارجة عنه بسبب الجهل بتعاليمه الصحيحة، على أن جهود الشيخ بدأت أولا بمكة سنة 1837 ليتخذ في النهاية منطقة برقة بليبيا مجالا لعمله سنة 1844، فارتبطت هذه الدعوة بليبيا و كانت سببا في جمع شمل قبائل الصحراء الليبية، كما كان لها أيضا التأثير الكبير في يقظة العالم الإسلامي في مواجهة الاستعمار الأوروبي في بلاد المغرب وجنوب الصحراء.

وإذا كانت السنوسية فكرة وطريقة نجحت في تكوين مجتمع متماسك ومتعاون حملت العلم والإيمان إلى خارج ليبيا، يحق إذن طرح تساؤلات عن طبيعة السنوسية، فهل هي حركة روحية تسعى لتطهير النفوس ؟ أم هي حركة فكرية تسعى لتوضيح المبادئ على أساس منطقي؟ أم هي حركة اجتماعية أساسها الزاوية ؟ أم هي حركة ثقافية تسعى إلى نشر المعرفة ؟ أم هي حركة سياسية تقوم بمهام الإمارة بعد ضعف دولة المسلمين في العهد العثماني ؟ وأخيرا هل كانت السنوسية امتدادا للحركة الوهابية بعد مائة عام من قيامها فتأثرت بها وأخذت تعاليمها لتنشرها في بلاد المغرب وجنوب الصحراء؟

---

* أستاذ مساعد بقسم التاريخ جامعة حسيبة بن بوعلي – الشلف –

أما عن سبب تحديد الإطار الزمني لهذا البحث بفترة (1787– 1859) فيرجع إلى كون تاريخ 1787 هو ميلاد الشيخ السنوسي صاحب هذه الحركة في مستغانم بالجزائر، أما عن تاريخ 1859 فهي السنة التي توفي فيها في مقر زاويته المركزية في واحة الجغبوب بليبيا وفي هذه الفترة توضحت معالم حركته، على أن الإطار الزمني لهذا البحث في الخاتمة يمتد إلى سنة 1902 تاريخ استشهاد محمد المهدي السنوسي الخليفة الأول في الحركة السنوسية والذي بلغت في عهده الحركة ذروة انتشارها ونموها مع الإشارة إلى جهود الخلف في المقاومة الليبية ضد الاحتلال الإيطالي بإيجاز.

أما فيما يخص المراجع فقد تبين لي من خلال جمع مادة البحث أن الكتب التي تناولت السنوسية بالدراسة قليلة نسبيا إذا ما قورنت بالحركة الوهابية، ومن أهم الكتب التي تعرضت للسنوسية في القرن التاسع عشر الميلادي تلك التي كتبها الرحالة الأوروبيون الذين زاروا شمال إفريقيا وجنوب الصحراء وأشهرها كتب لوي رين ودوفيريي وهاملتون وبريتشارد، وقد تحدثوا عن السنوسية من وجهة نظر غربية واهتموا بإفريقيا لأغراض توسعية، بالإضافة إلى ما قيده الحشايشي التونسي في رحلته ودائرة المعارف للبستاني.

وبعد هذه المحاولات ظهرت دراسات حديثة من أهمها كتاب محمد فؤاد شكري و نيقولا زيادة عن السنوسية كما تعرضت دائرة المعارف الإسلامية وكتب التراجم كالزركلي للسنوسية، و شكيب أرسلان في كتابه "حاضر العالم الإسلامي" ومن جهته أمر الملك محمد إدريس السنوسي بجمع تراث جده وتحقيقه وطبعه بمناسبة الذكرى المئوية الأولى لوفاة الشيخ السنوسي(1859– 1959).

1– مولده ونشأته الأولى:

ولد محمد بن علي السنوسي سنة 1202هـ الموافق لسنة 1787م في محلة الواسطة بالجزائر(01)على أصح الروايات، وفي معرض حديثه عن أسرة السنوسي يقول شكيب أرسلان:" أن هذه الأسرة من قبيلة مجاهر، وأن عدد أبناء الحي

الذي ولد فيه ابن السنوسي يبلغ سبعين ألف نسمة ينتمي إليهم وينضوي حولهم نحو مائتي ألف نسمة أكثرهم من عمالة وهران بجوار نهر الشلف"(02).

أما محمد البهي فيقول:" أن العائلة مازالت تعرف في الجزائر حتى الآن بعائلة الأطرش" (03)، وقد اشتهر محمد بن علي بلقب السنوسي مضافا إليه الخطابي الإدريسي الحسني (04) حيث كان الشيخ السنوسي نفسه يذيل رسائله إلى مريديه على هذا الشكل وفي كتاب الإيقاظ لمؤلفه ابن السنوسي توجد ترجمة الشيخ تذكر نسبه وتؤكد ألقابه (05). كما أورد البستاني في دائرة المعارف أن:" نسب محمد بن علي السنوسي يتصل بالحسن بن الإمام علي رضي الله عنهما" (06)، وقد أكد عراقة نسب أسرة السنوسي المفكر الإسلامي شكيب أرسلان بقوله:" أنه اطلع من الأسرة على نسب ينتمي إلى علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء، رضي الله عنهما" (07).

نشأ محمد بن علي السنوسي في عائلة اشتهرت بعراقة النسب وبالعلم والتدين، وكان والده يجمع إلى العلم والتقوى الفروسية والرماية، ويرجع الفضل في نشأة محمد بن علي السنوسي إلى عمته السيدة فاطمة بعد أن توفي أبوه في ريعان الشباب فنشأ يتيما في كفالة عمته التي اعتنت به وتولت تربيته وتعليمه فحفظ القرآن الكريم في طفولته ودرس الفقه والحديث والتصوف في معاهد مستغانم ومازونة على يد العلماء البارزين، وممن أخذ عنهم في تلك الفترة صالح أبو طالب المازوني*والشيخ محمد بن القندوز والشيخ أبو راس المعسكري وغيرهم.

تأثرت شخصية محمد بن علي التونسي في شبابه بعدة عوامل أولها عراقة نسبه دفعته إلى الاهتمام بتاريخ أجداده الأدارسة (08) وربما أشعرته بواجبه في إصلاح أحوال المسلمين ويمكن الاستدلال على ذلك بمؤلفاته الكثيرة في تاريخ الأنساب والفقه والتصوف. لقد توضحت ثلاثة اتجاهات فكرية في شخصية الشيخ السنوسي الإصلاحية والعلمية:

- أولها الصوفية التي تعمق في دراستها في فاس، ولقد وجدت بذور الصوفية في نشأته الأولى في مستغانم حينما كان يتردد على حلقات الذكر ويميل إلى الانفراد والتأمل وتوالي الرؤى عليه وفي فاس وجد الجو الصوفي يطغى على حياة الناس وما كان لها من نفوذ قوي في جامع القرويين، ومهادنة السلطان المغربي أقواها ليستعمل الحماس الديني لأتباعها من أجل تحقيق أحلامه التوسعية، كما كان الشأن مع الطريقة الدرقاوية في الغرب الجزائري ذلك أن أيام هذا السلطان العلوي الأخيرة كانت كلها حروب وفتن (09)، ولقد استمر اهتمام الشيخ السنوسي بالصوفية حتى آخر حياته حتى أنه أسس طريقة تحمل اسمه.

- وثانيها اهتمامه بالدراسة الفقهية فقد تابعها في فاس على المذهب المالكي بالإضافة إلى مطالعته كتب الفقه التي تضمها خزانة فاس، ويظهر اهتمامه بالفقه حتى آخر حياته في دعوته إلى الاجتهاد رغم كونه مالكيا (10)، وهذان الاتجاهان التصوف والفقه حققا التوازن في شخصية الشيخ السنوسي فجمع بين ثقافة الروح وثقافة العقل.

- وثالثها اهتمامه بالعمل لإصلاح أحوال المسلمين، ولقد برز هذا الاهتمام عند الشيخ السنوسي في نشأته الأولى في مستغانم، وفي مرحلة تعليمه في فاس، وما لاحظه من اضطراب اجتماعي وظلم الولاة في بلده وسكوت العلماء والصوفية في المغرب الأقصى على سياسة البلاط العلوي.

وبعد أن أجازه شيوخه في مختلف العلوم التي درسها بعد أن كلفوه بالتدريس في جامع القرويين والوعظ والإرشاد في المساجد، وأفاده ذلك في الاحتكاك بالطلاب والعامة وساعده ذلك أيضا في فهم عقلية سامعيه ونجح في كسب ثقتهم (11)، وفي إرشادهم إلى سواء السبيل، ويظهر أنه لفت نظر السلطان العلوي الذي رغب أن يخدم الشيخ السنوسي في بلاطه ولكن الشيخ رفض أن يكون رجل بلاط(12).

ومهما يكن من أمر صحة تلك الأخبار أن طبيعة الشيخ السنوسي كانت تقوده إلى العدل وتطهير النفوس والنهي عن المنكر وجمع كلمة المسلمين والإكثار من الموعظة الحسنة في دروسه إلى جانب أنه لم يذب في طريقة صوفية معينة لما رآه فيها من ميول إلى البلاط، وهذا ما أثار حوله الشكوك وتلمس الخطر في جانب دعوته فشددت الحكومة المغربية الرقابة على تحركات الشيخ في فاس(13).

ولكن هذه الاتصالات تنقصها الإحالات لسكوت المصادر التاريخية عنها فهل هذا من أسباب مغادرة الشيخ السنوسي فاس؟ أم أن السلطان سليمان خشي من مزاحمة آل إدريس في الحكم؟

فإذا كان السبب الرئيسي في قدوم الشيخ السنوسي إلى فاس هو مواصلة تعليمه وتكوينه فما هو سبب مغادرته لها؟ ومتى كان ذلك ؟ وما هي المدة التي قضاها دارسا ومدرسا ومتصوفا فيها ؟

من استقراء الفترة المتأخرة من حكم السلطان سليمان يتضح أن الجو السياسي في فاس كان ملبدا بالفتن وتمرد المطالبين بالعرش وتورط بعض العلماء وطلابهم في خلع البيعة على السلطان سليمان (14) مما سيكون له الأثر السيئ على العلماء والشيوخ بعد هدوء الأوضاع لصالح السلطان وقد زعزعت هذه الفتن مركز العلماء وطلابهم وهذه الظروف وقف عليها الشيخ في بلدته أيام اضطراب العلاقة بين الإدارة المحلية والعلماء إلى جانب توجس السلطان شرا من نشاط الشيخ السنوسي، وتبقى إشكالية تحديد تاريخ مغادرته فاس ففي مقدمة الإيقاظ نقرأ:" ثم ارتحل في حدود العشرين من القرن المذكور إلى محروسة فاس... فأقام بها إلى تمام عشرة العشرين" (15)، أي من سنة 1220هـ ثم إلى سنة 1230 هـ. الموافق لسنة 1805م و 1817 م وقد اختلط الأمر على مؤلفي دائرة المعارف الإسلامية عندما أوردوا تاريخا متأخرا عن الأحداث التي عرفتها مقاطعة وهران و فاس فيما سبق ذكره (16) وربما التاريخ الأصح هو الفترة الممتدة من سنة 1805 إلى سنة 1819و هي مدة إقامته في فاس وهذه التجارب لا شك أنها أهلت الشيخ لخوض طريق الإصلاح وما سيعترضه من صعوبات.

ثالثا: الفكر السنوسي وأهدافه : يتألف فكر الشيخ محمد بن علي السنوسي من شقين الفكر والطريقة وكلاهما نابع من شخصيته.

أولا تقديم ثلاثة كتب من مؤلفات الشيخ السنوسي:

لقد ترك الشيخ السنوسي عدة مؤلفات ضمنها أرءه في الفقه والتصوف، إذ كان يحرص دوما على الجمع بين الاتجاه الفقهي والاتجاه الصوفي، وقد عرض الشيخ أفكاره وسجلها في كتبه بأسلوب المناقشة وتقديم الحجج ولئن دل ذلك على شيء فإنه يدل على سعة إطلاعه ورفضه القول بانقطاع الاجتهاد.

ودراسة هذه المؤلفات تفيد الباحث في معرفة أفكار الشيخ السنوسي وفهم الجانب الدعوي من شخصيته وأخذ فكرة دقيقة عن صاحب الحركة السنوسية في مرحلة نشأتها. وللشيخ السنوسي في هذا الجانب ثلاثة كتب يمكن أن تصور المبادئ التي قامت عليها دعوته:

1- كتاب إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن:

وهو كتاب في (132) صفحة طبع بالقاهرة سنة 1380هـ الموافق لسنة 1960م. ويدخل هذا الكتاب في إطار الرد على مقلدي الأئمة والدعوة إلى العمل بالحديث والقرآن، وقد صنفه الشيخ السنوسي في مقدمة ومقصد(ثلاثة أبواب) وخاتمة وتناول في كتابه ستة مسائل هي:

- عن بيان أن دلالة الكتاب والسنة واحدة
- عن وجوب الرجوع إلى الكتاب والسنة والتمسك بهما.
- عن وجوب اتباعهما وتقديمهما على رأي كل مجتهد.
- عن رأيه في العمل بالحديث وفي رأي الفقهاء والمحدثين والأصوليين فيه.
- عن القول بالاجتهاد ورده على ذلك الزعم القائل أن الاجتهاد قد انقطع بالإجماع.
- عن التقليد وما ورد فيه من إبطال المذموم منه بالأدلة، وما ورد في أقوال العلماء في انحصار التقليد في الأئمة الأربعة(17).

2- كتاب المسائل العشر، ويسمى أيضا كتاب بغية المقاصد وخلاصة المراصد(18):

وهو في(190) صفحة طبع بالقاهرة سنة 1380هـ الموافق لسنة 1960م، ويذكر الشيخ في أول كتابه سبب تأليفه الكتاب، فقد وصلته وهو بالمدينة المنورة أسئلة

عديدة من أناس كثيرين خصوصا من أهل اليمن والمغرب مضمونها الاستفسار عن صحة ما يقوله المعترضون عن إتباع الكتاب والسنة فقط وخصوصا فيما يتعلق بأحوال الصلاة مع رفع اليدين وقبضهما والبسملة، طالبين تحقيقها واثبات أدلتها وذلك للرد على بعض المتفقهين الذين تطاولوا على العمل بالسنة (19).

وعلى عادته في تأليف كتاب الإيقاظ يبدأ كتاب المسائل العشر بمقدمة في جلال مقادير أئمة السلف، ومن حذا حذوهم واعتصامهم بالكتاب والسنة ومما سجله في المقصد:

- في تحديد معاني المذهب والفتوى والقضاء.
- أن السلوك الخلقي القويم هو الذي يتقيد بالكتاب والسنة.
- يتحدث مرة أخرى عن الاجتهاد والمجتهدين ويبطل إلزام انحصار التقليد في المذاهب الأربعة.
- يكرر رأيه في الكلام عن المحدثين والأصوليين والفقهاء في العمل بالحديث وتفرقهم شيعا.
- يشرح كيفية الصلاة فيصف صلاة النبي صلى الله عليه وسلم، ويذكر أركان الصلاة وفروعها ثم يذكر نصوص الأئمة في المسائل العشر وهي:

1-رفع اليدين في الصلاة، 2- القبض، 3- الاستعاذة، 4-البسملة، 5-التأمين، 6-التكبير، 7-السلام، 8-القنوت، 9-تطويل الصلاة، 10-تقصيرها.

ويختم كتابه بالحديث في التصوف كما فعل في خاتمة الإيقاظ ويتحدث عن النفوس السبعة وهي: 1-الأمارة، 2-اللوامة، 3-الملهمة، 4-المطمئنة، 5-الكاملة، 6-الراضية، 7-المرضية (20).

ويتضح من حديثه عن النفوس السبعة طريقه على منهج الأقطاب الصوفيين، فهو يرى ضرورة التأمل وينقل عن الإمام أبي حامد الغزالي قوله:" من لم يكن له نصيب من علم الباطن أخاف عليه سوء الخاتمة" (21).

3- كتاب السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين:

وهو على هامش كتاب المسائل العشر وتحدث الشيخ السنوسي في المقدمة عن سبب تأليفه الكتاب بقوله:" وبعد فقد حصل لنا ولله الحمد التام بأئمة أعلام وجهابذة من أهل الله فخام ووصل إلينا من طرائقهم أخذ وإجازة عدة وافرة ذكرنا جلها في فهرستينا الشموس الشارقة ومختصرها البدور السافرة ، مع ما وصل من العلوم إلينا وصحت روايته لدينا، ثم بدا لي أن انتخب من تلك الطرائق أربعين سوية وأفردها برسالة مبينة لأسانيدها السنية ولتكون قريبة المنال... ولذلك سميتها السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين وأذكر كيفيتها وما يتعلق بها"(22).

ويتضح من قراءة محتوى الكتاب أن موضوعه يبحث في الطرق الصوفية الأربعين وما يتعلق بها من تقاليد، إضافة إلى ما ورد فيه من أراء صوفية ولو أن هذه الآراء لا تعني طريقته الخاصة به، لأن الشيخ السنوسي كما مر من معلومات لم يكن مريدا لشيخ طريقة ما و لم يذب في طريقة دون أخرى،

ولقد وصف الطريقة المثلى التي رضي بها والتي تقوم على البساطة في الذكر والدعوة إلى التعاون والأخوة والتماسك الاجتماعي.

من هذه الكتب يمكن تكوين فكرة عن المؤلف كمفكر ومصلح والذي جمع بين منهج العلماء ومنهج الأقطاب الصوفية، وهذا الجانب من أبرز جوانب شخصيته الفكرية.

* **آراؤه في العقيدة:** كانت آراؤه الفقهية على جانب كبير من الأهمية بالقياس إلى العصر الذي عاش فيه وقد جابه نتيجة لمناداته الجريئة بها معارضة قوية من معاصريه في مكة والقاهرة بالخصوص وهكذا تمثل دعوة الشيخ السنوسي إلى وجوب التمسك بالكتاب والسنة باعتبار هما من أصول الدين دعوة جديرة بالتأمل والإعجاب وهو فيها قوي الحجة في المناقشة والرد على خصومه بالأدلة الشرعية والعقلية، فهو لا ينكر ما للأئمة من فضل كبير لكنه يرفض الوقوف عند حدود ما قالوه ما دام بالإمكان الرجوع إلى الأصل والإطلاع على أحاديث قد لا يكونون اطلعوا عليها ومادام بإمكان العبد التفكير والاستنباط بعقله، وفي هذا الباب قال الشيخ السنوسي في الإيقاظ: " أمر الكتاب المبين وصدع النبي الأمين وأجمع كافة المسلمين على مشروعية إتباع الكتاب والسنة ووجوب التمسك بهما وجوبا مؤكدا إذ منهما تفرعت جميع الواجبات بل وغيرها بشد الأيدي وعض

النواجذ فلا يمترى في تقديمها على رأي أحد كان الأغر جاهل بحكم الآي وماضي السنن وكلام السلف" (23).. وعن بيان أن دلالة الكتاب والسنة واحدة يقول:" إذ ليست السنة إلا مجرد بيان للقرآن، وهذا ما نصت عليه الآيتين الكريمتين:" وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى"(24). وأن الله عز وجل أكمل لعباده الدين وهذا ما نصت عليه الآية الكريمة:" اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي"(25). ، ثم من عليهم بما أتاهم من العلم وأمرهم بالاقتصار عليه وأن لا يقولوا عليه غيره، وهذا ما جاء في الآية الكريمة:" ولا تقف ما ليس لك به علم" (26) ومما جاء في الآية الكريمة كذلك:" اتبعوا ما أنزل عليكم من ربكم"(27) ، ومن السنة أورد أحاديث منها ما أورده جابر:" يوشك بأحدكم يقول هذا كتاب الله ما كان فيه حلال حللناه وما كان فيه حرام حرمناه إلا من بلغه عني حديث فكذب به فقد كذب الله ورسوله".

أما في وجوب تقديمهما على رأي كل مجتهد فيقول:"... والأخبار كثيرة جدا في رجوع الصحابة رضي الله عنهم عن فتاويهم وأقضيتهم عند إخبار بعضهم بالسنة كرجوع ابن مسعود رضي الله عنه عن الفتوى بحل امرأة ورجوع عمر وابن عباس رضي الله عنهما وغيرهم عن رأيهم، ذلك أن الاعتقاد المعروف عند الصحابة والتابعين وتابعيهم وسائر علماء المسلمين أن حكم الحاكم المجتهد إذا خالف نص كتاب الله وسنة رسوله وجب لفظه ومنع نفوذه"(28). ويبدي الشيخ السنوسي رأيه في هذه المسألة بقوله:" ولا يعارض نص الكتاب والسنة بالاحتمالات العقلية والخيالات النفسية والعصبية بـــأن يقال هذا المجتهد قد اطلع على هذا النص وخالفه لعلة ظهرت فيه أو اطلع على دليل آخر أو نحو هذا مما لهج به فريق من الفقهاء المتعصبين وأطبق عليه جهلة المقلدين"(29).

وقد خصص الشيخ السنوسي في الباب الأول من الإيقاظ بالحديث فيما للناس بالعمل بالحديث وتفرقهم شيعا في القديم والحديث، وفيه ثلاثة طرق:

أولها: طريقة الأصوليين: يقول أصحاب هذا الاتجاه:" أن العالم الحديث عندهم صنفان: ذو اجتهاد مطلق بقسميه من مستقل ومنتسب، وذو اجتهاد جزئي بناء على جواز تجزئه(30)، ويدلل على ذلك ما حصله:" إن العالم إذا تحصل له في بعض المسائل ما هو مناط بالاجتهاد دون غيرها فله أن يجتهد فيه. فإن الاجتهاد لو لم يتجزأ لزم علم بجميع المآخذ ويلزمه العلم بجميع الأحكام فإن ذلك غير داخل تحت وسع البشر لثبوت (لا أدري)، ويقول الشيخ نقلا عن فقهاء الأصوليين أنه:" إذا اطلع العالم على بعض الأحكام واجتهد في مسألة من ذلك البعض فهو وغيره ممن تصدى للحكم والفتوى في جميع المسائل سواء في ذلك البعض ولا يضره عدم العلم بأمارات مسائل سائر الأحكام، فمن عرف ما ورد من الآيات والسنن والإجماع في باب وجب أن يتمكن من الاجتهاد فيه"، ويورد قول الغزالي:" وليس الاجتهاد عندي منصبا لا يتجزأ بل يجوز أن ينال العالم منصب الاجتهاد وقد يحصل في فن دون فن بل في مسألة دون مسألة خلاف لبعضهم"(31). وهذا ما يسميه الفقهاء بالاجتهاد المقيد أو الجزئي، وللمتصف بالاجتهاد الجزئي وجهتان: وجهة اجتهاد فيما علمه من المسائل على الوجه الصحيح، ووجهة تقليد فيما جهله منها.

ثانيها طريقة المحدثين: يذكر فيها أن المحدثين قاطبة أجمعوا على مشروعية العمل بالحديث والاحتجاج به في أقسام الصحيح وغالبهم في أقسام الحسن وعلى جواز العمل بالضعيف في فضائل الأعمال أو ما عارض من رأي الرجال وللعمل بالحديث عند المحدثين شرطان أحدهما في العامل به يتصف بأهليته لذلك أي يكون عالما بمضمون الحديث من ناحية، وكونه ذا خبرة يقوى بها على معرفة المطلوب من الحديث أي إلمام بالمقصود من علم الناسخ والمنسوخ، وعلم التواتر وأنواع الآحاد وعلم أحوال الرواة والجرح والتعديل فيما لم ينص على صحته أو حسنه إمام معتبر من أئمة الحديث، وثانيها ما يخص المعمول به كونه محقق الألفاظ التي وردت عن الرسول صلى الله عليه وسلم بالضبط والإتقان لينتفي احتمال عارض التحريف والغلط (32).

ثالثها طريقة الفقهاء: يتحدث عن أرائهم في عمل المقلد بالحديث ويورد أولا ما جاء في شرح المختصر للشيخ سالم الشهوري الذي عليه الجمهور قوله:" من

ليس فيه أهلية الاجتهاد يجب عليه تقليد أحد الأئمة في الاجتهاد وإن كان عالما خلاف لمن قال لا يقلد العالم وإن لم يكن مجتهدا لصلاحيته في أخذ الحكم من الدليل"(33).

وفي معرض حديثه عن منع العمل بالحديث والنظر فيه وإن وافق مذهب الإمام المقلد يدلل الشيخ أيضا بأخبار من سير الصحابة والتابعين فقد روى أحمد في مسنده أن:" عروة بن الزبير أتى عبد الله بن عباس رضي الله عنهم فقال عروة يا ابن عباس طالما أضللت الناس فقال ابن عباس ما ذاك يا عروة فقال أن الرجل يخرج محرما بحج أو عمرة فإذا طاف زعمت أنه قد حل فقد ذكر أن أبا بكر وعمر ينهيان عن ذلك فقال ابن عباس أهما ويحك آثر عندك أم في كتاب الله وما سن رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه وأمته فقال عروة هما كانا أعلم بكتاب الله وما سن الرسول صلى الله عليه وسلم مني ومنك قال فخصمه عروة وفي خصم عروة وكلامه دليل على أن الأقل علما يجب عليه طرح ما عنده ومتابعة الأعلم منه كما في رجوع الفاروق رضي الله عنه لعلي رضي الله عنه في كثير من أموره حتى كان يقول:" لولا علي لهلك عمر"، وقول عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه لعثمان رضي الله عنه:" أبايعك على سنة الله ورسوله"(34). ونستقرئ من هذه الأدلة بأنه يجب على من ليس فيه أهلية الاجتهاد أن يقلد أحد الأئمة المجتهدين سواء أكان عالما أو ليس بعالم لأن علمه بالنسبة للأئمة المذكورين كالعدم، والوجوب طرح ما عنده لما هو أعلم منه، كما لا يجوز مخالفة نص الحديث إلا إذا خالف عمل أهل المدينة، فالمالكي لا يجوز له تقليد مالك في حكم ضعف مدركه فيه وإنما يقلده فيما وافق فيه الدليل أو قوي دليله على دليل غيره فمالك يقول:" إنما أنا بشر أخطئ وأصيب فانظروا في رأيي فما وافق الكتاب والسنة فخذوه وما لم يوافقهما فاتركوه" وقال أبي حنيفة:" إذا صح الحديث فهو مذهبي"(35).

أما فيما يخص التقليد فقد أفرد له في كتاب الإيقاظ ما ورد من دلائل في إبطال المذموم منه، وما ورد في أقوال العلماء في انحصاره في مذاهب الأئمة

الأربعة وقد سبق التعرض إلى ما ناقشه في ذم القول بالرأي في الدين بأدلة في معرض حديثه عن وجوب الرجوع إلى الكتاب والسنة من آيات الذكر الحكيم وأحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم، ومع ذلك يكرر الحديث لتنبيه الغافلين ولردع المقلدين فمنها ذكره لرواية عن أبي هريرة رضي الله عنه:" تعمل هذه الأمة برهة بكتاب الله وبرهة بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يعملون بالرأي فإذا فعلوا ذلك فقد ضلوا"(36) ، وفي رواية:" أعظمها فتنة قوم يقيسون الدين برأيهم فيحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله "، وجاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال وهو على المنبر:" يا أيها الناس إن الرأي إنما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم مصيبا لأن الله كان يريه وإنما هو منا الظن والتكلف"، وقال أيضا :" إياكم وأصحاب الرأي أعداء السنن أعيتهم أن يحفظوها فقالوا بالرأي فضلوا وأضلوا" ، أما الإمام مالك فقال:" لم يكن من أمر الناس ولا من مضى من سلفنا ولا أدركت أحدا اقتدى به يقول في شيء هذا حلال وهذا حرام، ما كانوا يجترئون على ذلك وإنما كانوا يقولون نكره هذا ونرى هذا حسنا ونتقي هذا ولا نرى هذا، وزاد رأيا ولا يقولون حلالا ولا حراما"(37) ، أما سمعت قول الله عز وجل:" قل أرأيتم ما أنزل الله من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا" (38). وعن الإمام علي رضي الله عنه نقل الشيخ السنوسي ما نصه:" ثلاثة لا يقبل معهن عمل الشرك والكبر والرأي، قالوا وما الرأي يا أمير المؤمنين، قال: يدع كتاب الله ويعمل بالرأي"، أما الشافعي فقد روى بسنده إلى أن ابن عباس رضي الله عنهما قال:" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مهما أوتيتم من كتاب الله العمل به لا عذر لأحد في تركه فإن لم يكن في كتاب الله فسنة مني ماضية، فإن لم تكن سنة مني فما قال أصحابي بمنزلة النجوم في السماء فأيما أخذتم به اهتديتم واختلاف أصحابي لكم رحمة". وقال بن عباس:" ويل لأتباع من عثرات العلماء قيل كيف ذلك قال: يقول العالم شيئا برأيه ثم يجد من هو أعلم برسول الله صلى الله عليه وسلم منه فيترك قوله ويمضي الأتباع على أثره"، وهذا كله نفي للتقليد وإبطال للمذموم منه بالخصوص شرعا وعقلا(39)، ويستطرد الشيخ السنوسي في سياق المناقشة من أمر التقليد فيتحدث

عن تقليد العامي فإنه لابد له من تقليد عالمه في مسألة لأنه لا يتبين موقع الحجة ولا يصل لعدم الفهم، لأن العلم درجات لا سبيل لنيل أعلاها إلا بنيل أسفلها.

وله رأي آخر في هذا الباب وهو قوله باجتهاد العامي إذا قال للمفتي في مسألة هكذا أمر الله ورسوله فإن أجابه بنعم أخذ بقوله ولا يلزمه أكثر من هذا البحث ولا يلزم المفتي أن يذكر له الآية والحديث ودلالتهما عليه وإن قال له هذا قولي أو رأي فلان أو مذهبه في واحد من الفقهاء أو نحره أو سكت عنه فله طلب عالم غيره(40). ويروى عبد الله عن الإمام أحمد قوله:" قلت لأبي الرجل تنزل به النازلة ولا يجد إلا قوما من أصحاب الحديث والرواية لا علم لهم بالفقه وقوما من أصحاب الرأي لا علم لهم بالحديث قال: يسأل أصحاب الحديث ولا يسأل أصحاب الرأي، ضعف الحديث خير من الرأي"(41).

مما تقدم ذكره من أدلة شرعية في باب الاجتهاد والتقليد يتجلى إحساس الشيخ السنوسي بمشاكل عصره من خلال فهمه للعقيدة الصحيحة وحقيقة التصوف السني، وقد رأينا كيف ناقش قوله بالاجتهاد وكيف رد على الزعم القائل بانقطاعه بدعوى أنه من إجماع العلماء على غلق بابه.

وقد جاءت آراؤه الفقهية في وقت تحجرت فيه أساليب التفكير في العالم الإسلامي، وقد طبق هذه الفكرة عندما خالف وهو مالكي المذهب مذهب الإمام مالك نفسه في بعض مسائل أركان الصلاة، ومنها تلك التي دونها في كتاب المسائل العشر كونه كان يقبض في صلاته ويقنت بعد الركوع ويقصر في صلاته أثناء السفر وقد تبعه في ذلك مريدوه(42) ، وهذا ما جعله يواجه معارضة قوية من مشايخ المالكية في الأزهر بالخصوص ذلك أنه خالف ابن القاسم أحد تلاميذ مالك في السدل، أما في التصوف فنجده فيه مؤمنا بالرؤيا والاتصال والاتحاد وهذا ليس بجديد عليه ذلك أنه نشأ في بيئة صوفية ودرس على أقطاب الطرق الصوفية في بلدته مستغانم ثم فاس والحجاز بالخصوص دون أن يذوب في طريقة من الطرق الصوفية المعروفة في عصره.

ويرد على من ينكر الجمع بين الفقه والتصوف بقوله في كتاب المسائل العشر:" قد يسري في وهم من ليس له ثبوت قدم في علم القوم أن أحوال الصوفية بعضها مباين لما عليه علماء الشريعة كما قال به بعض الجهلة تعاليا أو تنقبصا"، إلى أن يقول:" فإن أعمال سبيل القوم عندهم موزونة بميزان الشريعة فما رجح منها فيه قبلوه وما لا نبذوه"(43) ، وكان بمنهجه الفكري سائرا في إتجاه المجددين في الإسلام فقد استطاع أن يجمع بين أمرين:

* أولهما التحرر من الجمود والجبرية وتحليل العقيدة وتعميق رسالة التوحيد.
*ثانيهما تنقية الطرق الصوفية من مفاهيمها المنحرفة ودفعها إلى العمل البعيد عن الاعتقاد بفكرة الحلول والاتحاد بين الخالق والمخلوقات.

وكان الشيخ السنوسي بإجماع مؤرخيه يبغض التعصب المذهبي وسكوت الجامدين وينادي بتطهير العقيدة من البدع التي ألصقت بها، فكان بذلك في طليعة زعماء الإصلاح والتجديد في عصره مؤمنا بأن التعصب المذهبي من العوامل الداخلية التي تحول دون اليقظة الإسلامية في مواجهة الاستعمار مدركا بذلك بأن الفكر الإسلامي يساير التطور ولا يعاديه، وهذا الإحساس بضرورة الإصلاح الاجتماعي(44) ، سيأتي الحديث عنه في تحديد طبيعة وأهداف الدعوة السنوسية ودحض خصوم العقيدة الصحيحة وادعائهم من أن ما عليه المسلمون من انحطاط فكري يرجع إلى الإسلام(45) ، ولقد كشفت كتبه المختلفة عن اجتهاده في اتجاهين:
*أولهما الفقه ومما سبق شرحه يتضح أن موقفه من الفقه يكشف عن جوهر فكره الدعوي وقد بنى دعوته إلى الاجتهاد على أساس تاريخي أثبت فيه أن السلف الصالح التزم بالرجوع إلى الكتاب والسنة ودلل على ذلك في الإيقاظ كون المجتهدين لم ينقطعوا في عصر من العصور الإسلامية وهذه الحجة أسقطت الزعم القائل بغلق باب الاجتهاد، كما بنى دعوته على أساس عقلي إذ قال:" باجتهاد العامي وهو أن سأل الإنسان للمفتي عن دليله الذي استند إليه في فتواه و إلا تركه إلى غيره ممن هو أقدر منه على الإتيان بالدليل"، وهكذا فالاجتهاد عند الشيخ السنوسي هو ضرورة عقلية لإيجاد الحلول المناسبة للمشاكل التي تطرأ على حياة المسلمين(46).

3- التصوف السنوسي:

قرن الشيخ السنوسي الفكر بالعمل فأسس الطريقة والزاوية، وقد ساعده هذا الجمع على النجاح في نشأة حركته.

أ-الطريقة السنوسية: أخذ الشيخ السنوسي فكرة الطريقة الصوفية من الطرق الكثيرة التي تعرف عليها أثناء رحلاته وعمل من جهته على تنظيم طريقة خاصة به يسلكها مع أتباعه إلى محبة الله وموالاته. وتكون مرآة تعكس أفكاره التي يؤمن بها وفي مقدمتها وجوب الرجوع إلى الكتاب والسنة وفي كتاب السلسبيل سجل رأيه في الطرق التي تعرف عليها إلى أن اهتدى إلى رسم معالم طريقة خاصة به، ونسبة الطريقة المحمدية إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم دون غيرها لمتابعة السنة في القليل والكثير. كما دعا إلى وجوب تقيد الصوفي بالكتاب والسنة لقوله في هذا الصدد:" فاعلم أن سبيل القوم إتباع النبي صلى الله عليه وسلم في الجليل والحقير... وأعمالهم موزونة بميزان الشريعة"(47).

يتمثل التنظيم الهيكلي للطريقة السنوسية في شيخ الطريقة وهو مقدم الزاوية يساعده في ذلك مجلس الخواص في تسيير أمور الزاوية ويليهم الإخوان ومهمتهم الدعوة لكسب الأتباع (48).

أما أوراد* الطريقة السنوسية فهي القرآن الكريم والذكر بالاستغفار والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم(49) ، وعلى المريد* عند قراءة الورد أخذ المسائل العشر وهي أحاديث نبوية مختارة من الشيخ السنوسي في كتاب يحمل هذا الإسم ويتلقاها المريد من شيخه في سلسلة تنتهي بالرسول صلى الله عليه وسلم ويتم التلقي بالمصافحة بين المريد والشيخ وهو تقليد يرجع إلى رؤية رأى السنوسي فيها أنه صافح النبي صلى الله عليه وسلم(50) ، وتبدأ قراءة الورد بفاتحة الورد وهي بالنص التالي: " اللهم إني أقدم إليك بين يدي كل نفس ولمحة وطرفة يطرف بها أهل السماوات والأرض وكل شيء هو في علمك كائن أو قد كان أقدم إليك بين يدي ذلك كله"(51) ، ويليه الاستغفار عقب الصلاة بالنص التالي:" أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم غفار الذنوب ذا

الجلال والإكرام وأتوب إليه من جميع المعاصي كلها والذنوب والآثام ومن كل ذنب أذنبته عمدا أو خطئا ظاهرا وباطنا قولا وفعلا في جميع حركاتي وسكناتي وخطواتي وأنفاسي كلها دائما عددا ما أحاط بها العلم وأحصاه الكتاب وخطه القلم وعدد ما أوجدته القدرة وخصصته الإرادة ومداد كلمات الله كما ينبغي لجلال وجه ربنا وجماله وكماله كما يحب ربنا ويرضى"(52).

أما الصلاة على النبي فنصها:" اللهم إني أسألك بنور وجه الله العظيم الذي ملأ أركان عرش الله العظيم وقامت به عوالم الله العظيم أن تصلي على مولانا محمد ذي القدر العظيم في كل لمحة ونفس عدد ما في علم الله العظيم صلاة دائمة بدوام الله العظيم تعظيما لحقك يا مولانا محمد يا ذا الخلق العظيم وسلم عليه وعلى آله مثل ذلك واجمع بيني وبينه كما جمعت بين الروح والنفس ظاهرا وباطنا يقظة ومناما واجعله يا رب روحا لذاتي من جميع الوجوه في الدنيا قبل الآخرة يا عظيم"(53) ، ومما يلاحظ على هذا الورد تكرار لفظة عظيم لذلك سمي هذا الورد بالصلاة العظيمة وهي ترمي إلى الوصول بين المريد والرسول صلى الله عليه وسلم لرؤية قال بها الشيخ السنوسي.

والطريقة السنوسية لا تدعو إلى تجاوز الاتصال بالرسول صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان بإمكانية الاتحاد مع الله كما فعلت الطرق الصوفية الأخرى، ولتوضيح ما قال به الشيخ السنوسي نورد حديث النبي صلى الله عليه وسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:" سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من رآني في المنام فسيراني في اليقظة، أو لكأنما رآني في اليقظة ولا يتمثل الشيطان بي"، وفي شرحه لهذا الحديث يقول محمد شمس الدين أبادي في كتابه عون المعبود في شرح سنن أبي داود ما نصه:" بمعنى من رآني في المنام فسيراني اليقظة يوم القيامة رؤية خاصة في القرب من الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا القول فيه بشارة لرائيه بأنه يموت على الإسلام"(54). وقد ورد هذا الحديث أيضا في الصحيحين.

أما عن الروح بعد صعودها إلى الرفيق الأعلى حينما تفارق الجسد فلا يمكن لها أن تعود إلى الدنيا وتتحد مع البشر وفي ذلك يقول الله عز وجل:" حتى إذا

جاء أحدهم الموت قال رب أرجعون لعلي أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون"(55) ، ويفسر الطبري ذلك بقوله:" ومن أمامهم حاجز يحجز بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا إلى يوم القيامة"(56) ، فإذا كان الشيخ السنوسي رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ولم يأمره بالتبليغ عنه، فهذا صحيح بنص الحديث لأن الرسول صلى الله عليه وسلم هو خاتم النبيين، وقد أنكر شيخ الإسلام ابن تيمية فكرة الحلول والاتحاد وأبطلها بالشرع والعقل(57).

وهناك أوراد أخرى وردت في السلسبيل يقرأها الإخوان في حلقات الذكر على مدى أيام الأسبوع ومنها الورد الأحمدي ودعاء الأختام(58) ، وكان الذكر يتم دون مصاحبة الموسيقى والإيقاع لأن الشيخ السنوسي في طريقته تقيد بالسنة وابتعد عن تقاليد الصوفية المنحرفة كأكل الزجاج وغيره... (59).

ب– الزاوية السنوسية:

تعتبر الزاوية السنوسية الشق الأساسي الثاني في الحركة السنوسية وهي التطبيق العملي للفكر السنوسي، ولهذا الغرض أسس الشيخ السنوسي أول زاوية خاصة بطريقته على جبل أبي قبيس في مكة سنة 1837، وكانت بداية لجهوده في مكة أثناء مكوثه بالحجاز، ولما برز كمفكر مجدد في برقة سنة1844 أسس زاوية البيضا على الجبل الأخضر في برقة بليبيا وسماها أم الزوايا، ورغبة منه في الاستقرار النهائي بليبيا نقل أم الزوايا من مقرها في البيضا إلى واحة الجغبوب داخل منطقة برقة على الحدود مع مصر، وكان ذلك بعد عودته من رحلته الثانية إلى المشرق سنة 1855، ومكث بها حتى أخر حياته سنة 1859، وقد تحدث الشيخ السنوسي عن حقيقة الزاوية في إحدى رسائله إلى مريديه نقل منها زيادة ما نصه:" ... وازاوية في الحقيقة إنما هي بيت من بيوت الله ومسجد من مساجده... والزاوية إذا حلت بمحل نزلت فيه الرحمة وتعمر به البلاد... لأنها ما أسست إلا لقراءة القرآن ولنشر شريعة أفضل ولد عدنان"(60) ، وفي رسالة أخرى كتب الشيخ السنوسي :" رتبنا لكل واحدة خليفة يقوم فيها بما ذكر يوم

الجمعة، وتعليم القرآن، ودرس العلم ودلالة خلق الله على دينهم وعودهم إلى ربهم، وبذلك تبتهج الأرض حولها بأنواع الأشجار، ويكثر بها السكان لكثرة الثمار وتنتشر العمارة"(61) ، وكانت زاوية الجغبوب تضم ستة مبان هي:

أولا: المسجد ومدرسة تحفيظ القرآن الكريم.

ثانيا: معهد ديني لتدريس الشريعة لمن أتم حفظ القرآن ومن ثم إعداد الطلاب للالتحاق بالأزهر.

ثالثا: مكتبة زاوية الجغبوب والتي كانت تحتوي على ثمانية آلاف مجلد في الفقه والتفسير والتاريخ والأدب والفلك، وقد ضاعت محتويات هذه المكتبة بعد الاحتلال الإيطالي لواحة الجغبوب سنة 1925.

رابعا: مساكن الشيخ والأعوان والإخوان.

خامسا: مجلس الضيوف والوافدين.

سادسا: غرف الطلبة الوافدين على الزاوية وتسمى الخلوات(62).

وألحقت بالزاوية مبان مخصصة للنشاط الحرفي وذلك لسد حاجيات سكان الزاوية، وقد اختار الشيخ السنوسي المواقع الحسنة لزواياه وفي هذا يقول أرسلان:" وأغلب هذه الزوايا تختار لها أجمل البقع وأخصب الأرضين، وفيها الآبار التي لا تنضح من كثرة مائها، وفي الجبل الأخضر هي بجانب عيون جارية وأنهار صافية، وقل أن مررت بزاوية ليس لها بستان أو بساتين فيها من كل أنواع الفواكه"(63).

وللزاوية موارد تحصل عليها من زراعة أراضي الأوقاف التي تتبرع بها القبائل النازلة قرب الزاوية، فضلا عن تربية المواشي وجباية الزكاة بعد أن اعفتها الدولة العثمانية من دفع الضرائب سنة 1856، وكانت كل زاوية تساهم بنصيب من مواردها لتمويل الزاوية الأم(64).

ج– مآثر زاوية الجغبوب في مجال الإصلاح الاجتماعي:

أولا: الأثر الفكري والاجتماعي: غرست زاوية الجغبوب في نفوس طلابها والوافدين عليها القيم الفردية والجماعية للحرية الإنسانية في أسمى معانيها لأن

الإسلام في جوهره يحارب الاستبداد والاستغلال، ولقد عمل الشيخ السنوسي على إبطال ظاهرة الأرقاء بعد شرائهم من تجار القوافل وعتقهم لوجه الله وتكوينهم في الزوايا ليصبحوا بعد ذلك دعاة ورجالا لتعمير الأراضي(65).

ثانيا: الأثر الجهادي: تمثل هذا الأثر في ممارسة أتباعها ضروب التدريب العسكري كالرماية وركوب الخيل وإنتاج العدة استعدادا لمواجهة الأعداء المتربصين، وكان لهذا الأثر الفضل فيما أحرزه الليبيون من انتصارات في مقاومتهم ضد الإيطاليين(66).

ثالثا: الأثر التربوي: أولت الزاوية المرأة حقوقها من العطف والرعاية والإصلاح وعملت على إنقاذها من مهاوي الجهل، فكانت المرأة السنوسية تتلقى مبادئ دينها بعد تحفيظها القرآن الكريم وهذا أمر طبيعي لأن الشيخ السنوسي كفلته عمته الفاضلة وهو طفل يتيم أثناء نشأته الأولى وبذلك حرص على تكوين الأسرة(67).

رابعا: أثر الزاوية في توفير الأمن الداخلي: أصبحت زاوية الجغبوب ملجأ الزوار والوافدين أثناء مرور القوافل التجارية ومواكب الحجاج، وقد استفادت من موقعها الإستراتيجي حتى غدت مهابة الجانب من الجميع وأمنت السفر في الصحراء الليبية من أهوال الطريق وعناء السفر، وبقيت زاوية الجغبوب زاوية مركزية في النظام السنوسي حتى بعد وفاة مؤسسها الشيخ السنوسي، وفي سنة 1895 انتقل محمد المهدي السنوسي إلى الزاوية المركزية في واحة الكفرة في أقصى جنوب ليبيا وأطلق على زاويته اسم التاج، وفي عهده بلغت الزوايا السنوسية ذروة انتشارها(68).

4- أهداف الدعوة السنوسية:

السنوسية حركة إصلاحية سلفية وطريقة صوفية سنية كان هدفها الأول تكوين الإنسان الصالح لا الصوفي الغيبي، فكسبت بطريقتها المقيدة بالسنة أتباعا كثيرين ولم ترفضها الحركة الوهابية في الحجاز ولم تهدم زواياها في مدن الحجاز كمكة والمدينة بالخصوص(69)، وقبل التعرض لمبادئ السنوسية وأهدافها نستعرض العوامل التي أثرت في صاحب هذه الحركة في النصف الأول من القرن التاسع عشر والتي يمكن إجمالها في:

شعوره بضعف المسلمين في جميع الميادين نتيجة الابتعاد عن تعاليم الإسلام الصحيحة والتعصب المذهبي(70).

شعوره بضعف دولة الخلافة وتسلط حكم الفرد في الولايات في العهد العثماني.

شعوره بضغط العالم المسيحي على العالم الإسلامي والذي بدت معالمه تلوح في الأفق باحتلال الجزائر وعدن.

فكانت دعوته صدى لهذا التأثر، وكان منهجه في ذلك تحكيم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وقد أقام دعوته على المبادئ التالية:

أولها العودة بالإسلام على نقائه الأول.

ثانيها اعتبار الكتاب والسنة مصدري الشريعة.

ثالثها فتح باب الاجتهاد في الفقه واعتبار غلق هذا الباب سببا في تحجر أساليب التفكير الإسلامي ودخول البدع عليه.

رابعها تنقية الطريقة السنوسية من ضلالات الصوفية.

ولقد حققت الدعوة السنوسية في مرحلة نشأتها الأولى أهدافا عامة منها:

أولها بناء قوة عربية إسلامية في صحراء ليبيا بالخصوص تقوم دعامتها على أساس مجتمع الزاوية.

ثانيها النهضة الشاملة في مجتمع الزاوية بالذات وتخريج الدعاة لنشر الإسلام جنوب الصحراء ومقاومة التبشير والتنصير في وسط وغرب إفريقيا.

ثالثها مواجهة الاستعمار ومقاومته في عهد خلفاء الشيخ السنوسي(71).

خاتمة:

يمكننا القول في الأخير أن السنوسية تعتبر حركة إسلامية متعددة الأهداف ومجالات النشاط، فوجود المعهد الديني بالجغبوب وانتشار المدارس القرآنية الملحقة بالزوايا وتكوين الدعاة وإقامة النظام التعاوني في استصلاح الأراضي المحيطة بالزاوية وتأمين حاجيات مجتمع الزاوية ونشر الأمن على طرق القوافل والحجاج وإعادة هيكلة مجتمع البوادي لجمع شمل القبائل بالوعظ والإرشاد ونبذ العصبية وإبطال ظاهرة العبيد.

وبالتالي لا يمكن أن يكون السنوسية امتدادا للحركة الوهابية ذلك أن شخصية الشيخ السنوسي مؤسس الحركة كانت ترفض التقليد حتى المذاهب الأربعة فما بالك بشيخ قام بنفس الجهود التي قام بها صاحب الدعوة السنوسية، كما أن الشيخ السنوسي كان يرفض التقرب من السلطة فهو إذن لم يكن مريدا لشيخ و لم يرتزق بعلمه لدى البلاطات.

وقد يكون الشيخ السنوسي تأثر بالوهابية في الدعوة إلى التوحيد والرجوع إلى الكتاب والسنة والعمل بهما، كما أن حركته تلتقي مع الوهابية في الاتجاه السلفي، أما الاختلاف بينهما فهو واضح، فالوهابية تمسكت بمذهب أحمد بن حنبل واجتهاد بن تيمية، بينما السنوسية المالكية خالفت مذهبها بالاجتهاد في بعض الفرائض مثلا، والوهابية اتبعت أسلوب التشدد في رد المخالفين لتعاليمها، وأدى بها الأمر إلى الاصطدام مع خصومها داخل نجد وخارجها، بينما السنوسية سلكت طريق اللين في أسلوب العمل، لكن هذا لم يقف دون إعلان الجهاد ضد الاحتلال الإيطالي لأرض ليبيا أو زحف التبشير في تشاد وتقدم الفرنسيين في اتجاه الهوقار والنيجر.

وخلاصة القول أن جهود الشيخ السنوسي وجهود خلفه نجحت في تأسيس ليبيا الحديثة بتوحيد أقاليمها الثلاثة طرابلس، برقة وفزان، إلا أن هذه الجهود في المجال الفكري لم تحدث تغييرا جذريا في يقظة الفكر العربي الإسلامي بسبب أساليب التفكير المتحجرة التي ورثها المسلمون عن فترة الضعف والانحطاط، وحالة التجزئة التي فرضها الاستعمار الغربي على العالم الإسلامي.

الهوامش

1- خير الدين الزركلي، الأعلام، المجلد السادس، مادة محمد، بيروت، لبنان، 1980، ص 192.
* أما الواسطة فهي مستغانم الواقعة بين الجزائر ووهران
2- شكيب أرسلان: حاضر العالم الإسلامي، تأليف ستودارد لوثروب، ترجمة عجاج نويهض، المجلد الثاني، ص 140.
3- محمد البهي: الفكر الاسلامي وتطوره، الطبعة الثانية، بيروت، لبنان1971، ص 92.
4- عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين، الجزء الحادي عشر، دمشق، سورية، 1960 ، ص ص 14، 15* يذكر فيها: (محمد بن علي السنوسي الحسني الخطابي الشلفي الأصلي المكي الجغبوبي).
5- محمد بن علي السنوسي، إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن، الطبعة الثانية، القاهرة، مصر، 1960، من المقدمة.
6- بطرس البستاني، دائرة المعارف، المجلد العاشر، مادة سنوسي، دون مكان وتاريخ النشر، ص 156.
7- أرسلان، المرجع السابق، ص 140. *أبو طالب المازوني، فقيه ومحدث اشتهر بالتصوف، انتقل من مازونة إلى معسكر، وشارك في فتح وهران من الاحتلال الأسباني سنة 1792
8- برز اهتمامه بتاريخ أجداده في تأليف كتاب الدرر السنية في أخبار السلالة الادريسية، القاهرة، مصر، 1960.
9- الزركلي، المرجع السابق، 197.
10- الجندي، تراجم الأعلام المعاصرين في الإسلام، الطبعة الأولى، القاهرة، مصر، 1970، ص 404.
11- محمد فؤاد شكري، السنوسية دين ودولة ، مصر 1948م ، ص 15.
12- Rinn (Louis), Marabouts et Khouans, Alger 1884, p 479
13- الجندي، تراجم الإعلام ص 405.
14- الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج8 ، تحقيق وتعليق ولي المؤلف ، جعفر ومحمد الناصري ، الدار البيضاء المغرب 196م، ص 159.
15- السنوسي، الإيقاظ من المقدمة
16- دائرة المعارف الإسلامية، المجلد 12 مادة سنوسي ص 292.
17- محمد بن علي السنوسي ، إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن ، مصدر سابق ، ص 3
18- ولقد خص الشيخ كتاب للمسائل العشر في كتاب أسماه شفاء الصدر بأري(العسل) المسائل العشر، اقتصر فيه على ذكر ما في الكتاب المذكور واتى بما يشفي الغليل من الأحاديث النبوية في فريضة الصلاة وقد تضمن الكتابان اجتهادا خاصة بالشيخ.
19- محمد بن علي السنوسي، المسائل العشر، الطبعة الثانية، القاهرة، مصر ، 1960، ص 5.
20- قال الله تعالى:" يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي في جنتي"، سورة الفجر، الآيات من 27إلى 30.
21- السنوسي، المسائل، المرجع السابق، ص 180.
22- السنوسي، السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين على هامش كتاب المسائل العشر ، القاهرة 1940م ، ص 5.
23- السنوسي، الإيقاظ، ص 34.
24- الآيتان 3، 4 من سورة النجم.
25- الآية 3 من سورة المائدة.
26- الآية 26 من سورة الإسراء.
27- الآية 3 من سورة الأعراف.
28- السنوسي، الإيقاظ، ص 38.

29- نفس المرجع، ص 38
30- نفس المرجع، ص .39
31-نفس المرجع، ص .40
32- نفس الصفحة، ص .40
33- نفسه، ص .49
34- نفسه، ص 46
35- نفسه، ص .60
36- السنوسي، المسائل العشر، ص .79
37- نفســــه، ص .37
38- الآية 58 من سورة يونس.
39- السنوسي، الإيقاظ، ص .110
40- نفسه، ص .114
41- السنوسي، المسائل العشر، ص .66
42- نفس المرجع، ص .72
43- نفس الصفحة.
44- الجندي، المرجع السابق، ص .404
45- العقاد، عباس محمود، الإسلام في القرن العشرين ط02، بيروت 1969م، ص .132
46- الجندي، المرجع السابق، ص .408
47- السنوسي، السلسبيل، المرجع السابق، ص.11
48- زيادة، ص 44.

* الأوراد هي جملة من الأدعية أو بعض الآيات القرآنية يقرأها الشخص في وقت محدد من كل وقت.

49- Duveurier, Ibid, p 119
50- شكري، المرجع السابق، ص .121
51- السنوسي، السلسبيل، المرجع السابق، ص .62
52- نفسه، ص .63
53- السنوسي، السلسبيل، المرجع السابق، ص .62
54- محمد شمس الدين أبادي، عون المعبود في شرح سنن أبي داود، المجلد الثاني، شرح ابن قيم الجوزية، الطبعة الثانية، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، 1963، ص .366
55- الآية 99، سورة المؤمنون.
56- الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني، الجزء الثالث، الطبعة الثانية، الجزائر، 1987، ص .19
57- د. أحمد بن محمد بناني، موقف الإمام بن تيمية من التصوف والصوفية، الطبعة الأولى، الرياض، السعودية، 1986، ص .350
58- السنوسي، السلسبيل، المرجع السابق، ص .82
59- روسي، ليبيا منذ الفتح العربي، المرجع السابق، ص .320
60- زيادة، السنوسية، المرجع السابق، ص.43

61- الشمي، الحركات الإسلامية، المرجع السابق، ص .267
62- البهي، الحركات الإسلامية، المرجع السابق، ص .109
63- أرسلان، حاضر العالم الإسلامي، الجزء الأول، المرجع السابق، ص .297
64- البهي، الحركات الإسلامية، المرجع السابق، ص 98.
65- شكري، السنوسية، المرجع السابق، ص .144
66- الحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب، المرجع السابق، ص .60
67- الجندي، يقظة الفكر العربي، المرجع السابق، ص .409
68- العقاد، ليبيا المعاصرة، المرجع السابق، ص .133
69- الحافظ، المرجع السابق، ص 58.

المصادر والمراجع

أولا المصادر باللغة العربية

1. القرآن الكريم
2. السنوسي محمد بن علي، إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن، الطبعة الثانية، القاهرة، مصر 1960.
3. المسائل العشر، الطبعة الأولى، القاهرة، مصر، 1940.
4. السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين، وهو على هامش كتاب المسائل العشر.

ثانيا: المراجع باللغة العربية:

1- أبادي محمد شمس الدين، عون المعبود في شرح سنن أبي داود، المجلد الثاني عشر، شرح لابن القيم الجوزية، الطبعة الثانية، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان 1968.
2- لأشهب محمد الطيب، السنوسي الكبير، القاهرة، مصر 1959.
3- الأفندي محمد ثابت ورفاقه، دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الثاني عشر، مادة سنوسي.
4- رنولد توماس، الدعوة إلى الإسلام، الطبعة الثانية، القاهرة، مصر، 1957
5- لبستاني بطرس، دائرة المعارف، المجلد العاشر، مادة سنوسي، دون مكان وتاريخ النشر.
6- بناني أحمد بن محمد، موقف الإمام بن تيمية من التصوف والصوفية، الطبعة الأولى، الرياض، السعودية 1986.
7- البهي محمد، الفكر الإسلامي وتطوره، الطبعة الثانية، القاهرة، مصر، 1971.
8- امعة الإمام السنوسي، المئوية الأولى لوفاة الشيخ السنوسي، البيضاء، ليبيا 1960.
9- جمعة محمد كمال، انتشار الدعوة الوهابية خارج الجزيرة العربية، الطبعة الثانية، الرياض، السعودية، 1981.
10-الجندي أنور، يقظة الفكر العربي في مواجهة الاستعمار، الطبعة الأولى، القاهرة، مصر، 1971.
11-تراجم الأعلام المعاصرين في الإسلام، الطبعة الأولى، القاهرة، مصر، 1970.
12-خوجة محمد بن عثمان، المرآة، تعريب وتحقيق، محمد العربي الزبيري، الطبعة الثانية، الجزائر، 1982.
13-الراشدي ابن سحنون، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي، الجزائر 1978.
14-روسي أتوري، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911، تعريب خليفة محمد التليسي، بيروت، لبنان 1974.
15-الزاوي الطاهر محمد، ولاة طرابلس من بداية الفتح العربي إلى نهاية العهد التركي، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 1970.
16-الزركلي خير الدين، الأعلام، المجلد السادس، مادة محمد، بيروت، لبنان، 1980.

17-الزهار أحمد الشريف، مذكرات نقيب الأشراف، تحقيق أحمد توفيق المدني، الطبعة الثانية، الجزائر 1980.

18-الزياني أحمد بن يوسف، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تحقيق المهدي البوعبدلي، الجزائر 1978.

19-ستودارد لوثروب، حاضر العالم الإسلامي، الجزآن الأول والثاني، ترجمة عجاج نويهض وتعليق شكيب أرسلان، الطبعة الرابعة، بيروت، لبنان 1974.

20-شكري محمد فؤاد، السنوسية دين ودولة، القاهرة، مصر 1948.

21-الصعيدي عبد المتعال، المجددون في الإسلام، دون مكان وتاريخ النشر.

22-الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، اختصار وتحقيق محمد علي الصابوني، الطبعة الثانية، الجزائر 1987.

23-عبده محمد، الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية، الجزائر 1987.

24-العقاد صلاح، ليبيا المعاصرة، القاهرة، مصر 1960.

25-العقاد عباس محمود، الإسلام في القرن العشرين حاضره ومستقبله، الطبعة الثانية، بيروت، لبنان 1969.

26- كحالة محمد رضا، معجم المؤلفين، الجزء الحادي عشر، دمشق، سورية 1960.

27-عليش محمد، فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك، الجزء الثاني، الطبعة الثانية، القاهرة، مصر 1319هـ

28-مردم بك خليل، أعيان القرن الثالث عشر، تقديم وتعليق عدنان مردم بك، بيروت، لبنان، دون تاريخ النشر.

29-المحافظة علي، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، الطبعة الثالثة، بيروت، لبنان 1980.

30-ميكاكي رودولفو، طرابلس الغرب تحت حكم أسرة القرمانلي، ترجمة طه فوزي، القاهرة، مصر 1961.

31-الناصري أبو العباس، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدولة العلوية، الجزآن الثالث والرابع، تحقيق وتعليق ولدي المؤلف، جعفر ومحمد الناصري، الدار البيضاء، المغرب 1960.

ثالثا: المراجع باللغة الأجنبية

1- Duveyrier Henri, la confrérie musulmane de sidi Mohamed Ben Ali Es-senoussi, Paris; 1886.

2- Rinn Louis, Marabouts et Khouans, Alger, 1884.

3- Roches Léon, Trente deux ans à travers l'islam, tome 2, Paris, 1884, 1885.

رابعا: المقالات

نقولا زيادة، السنوسية، مجلة العربي، العدد 16، الكويت 1960.

د، عجيل جاسم النشمي، الحركات الإسلامية ودورها في يقظة العالم الإسلامي، مجلة الأصالة، المجلد الخامس، الجزائر 1972.

الوعي التاريخي في الخطاب العربي المعاصر
- الجابري أنموذجا-

أ./ باب العياط نور الدين*

إن قضية الوعي التاريخي تأخذ مكانا خاصا في أي ذات سواء الفردية منها كأشخاص أو جماعية كأمم وشعوب، إذ يتحرك فيها تحركا قويا، شعوريا أحيانا أو لا شعوريا أخرى يظهر من خلاله إلى أي مدى يكون التأصيل والثبات في الذات العالمة، لأن من العبث الحديث عن الحاضر والمستقبل، ما لم تكن لهما جذور تؤسسهما في الماضي، ويقوم الوعي التاريخي على قراءة معرفية معمقة لذلك الربط من جهة كشف القانون الأصيل المتحكم في سلامة البناء الحضاري للأمة أو اهتزازه، متجاوزا النظرة التقليدية للتاريخ إلى النظرة الفلسفية الواعية التي تستحضر ما هو ماض من خلال ما هو آت .

فما هي أهم خصوصيات القراءة في الوعي التاريخي الذي يرتفع بالتاريخ لمستوى العلم والمنهج بعيدا عن الطرح الأيديولوجي الذاتي، ذاك الذي يفرض قراءة واحدة من زاوية واحدة قد تكون خاطئة أو موجهة في كثير من الأحايين ؟

1- الإنسان في التاريخ :

في عملية التاريخ لبعث الماضي يتجه التفكير فيه إلى الإنسان مباشرة، سواء في صورته الفردية أو الجماعية محرك نسيج الماضي، غير أنه تعترضنا مشكلة تلقين الإنسان في التاريخ ومحاولة حصره كمادة أو كحادثة تاريخية يجري عليها فعل الزمن كما يجري على أي حادثة أخرى، وهذا ما يلاحظ في دراسة حياة الملوك

---

* أستاذ مساعد بقسم التاريخ ، جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف